

تقديم المدونة:

لقد دأب الكثير من الشعراء على مر عصور الأدب العربي على إظهار إعجابهم بقصيدة معينة أو أبيات من قصائد ، وهذه الألفاظ ترجمها الكثيرون منهم إلى اتباع هذه القصيدة أو تلك مقتبسين شيئاً منهم يتعلق بها كالوزن العروضي والنغمة الموسيقية والقافية وحركتها ، و المعاني و الأفكار ، أو الألفاظ ، وقد تتشابه الأغراض أيضاً وقد يجمع بين تلك الأشياء فيأتي عمله بما يسمى بـ(المعارضة) (1). ومن القصائد التي ذاعت شهرتها في أندية الأدب ومجالس الغناء وتناقلها الناس جيلاً بعد جيل قصيدة (يا ليل الصب متى غده) للحصري ، لذا فقد اهتم بها الشعراء وحاولوا النسخ على منوالها ومعارضتها في الوزن العروضي والقافية ، والمعاني والأفكار، وحتى الألفاظ ، ومن الشعراء الذين قاموا بمعارضتها : أحمد شوقي في مطلع قصيدته :

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده

وقصيدة شوقي أيضاً نالت عناية الأدباء واشتهرت هي الأخرى ، لأن شوقي أبدع فيها ولم يكن عمله مجرد تقليد أو استنساخ . ولقد وقع اختياري في مسألة الإتياع على باب المعارضات وذلك لأن الإتياع يكون واضحاً بشكل كبير في الوزن والقافية والمعاني ، والغرض الذي يساق فيه أحياناً ، فيكون المتبع في حركةٍ كأنها تقليد واستنساخ للأول ، ولكن هذا ليس بالضرورة ، لذا أردت بهذا العمل أن أبرز جهدا الثاني المتبع وقدرته على محاورة النص الأول والإبداع فيه أيضاً، لذا فقد اخترت معارضة للحصري ، أبرزت في هذا البحث مقدار إبداع الأول وإحسانه ، في مقابل أيضاً إبداع شوقي وقدرته على محاورة ومفاوضة النص الأول أجرى فيها العام مجرى الخاص، كما سيتضح في البحث ، وسأتناول في بحثي قصيدة الحصري (يا ليل الصب متى غده) مقتصرة فيها على جانب النسيب من الأبيات وهي مطلع القصيدة وذلك لأن هذا الجزء هو الذي عارضه وحذى حذوه شوقي في قصيدته (مضناك جفاه مرقده).

(1) انظر: نوقل ، محمد محمود: تاريخ المعارضات في الشعر العربي (عمّان، دار الفرقان، ط 1، 1983) 155.

مواضع الإلتباع :

لقد أفصحت فيما سبق أنني سأقوم بضبط الإلتباع الحاصل في أبيات شوقي الغزلية مع مطلع قصيدة الحصري التي جاء الغزل فيها في المطلع في اثنين وعشرين بيتاً حذى فيها شوقي قصيدة الحصري في الوزن الثماني الراقص من بحر المتدارك ، (فاعلن) ثماني مرات ويمكن تحويل التفعيلة فيه إلى (فاعلن) بتحريك العين و(فاعلن) بسكون العين ، وهذا الوزن الشعري أعطى القصيدتين طواعية كاملة في الموسيقى الشعرية والغناء الشعري (1) والرنة الموسيقية التي جاءت من القافية من روي الدال الموصلة بالهاء، واقتفى أثره أيضاً في أغلب المعاني والصور والأخيلة، مع التجديد المتأثر بالعصر والذات والتجربة.

فقد طالعنا الحصري بأسلوبه لمرهف ولغته الرقيقة ما يدور على لسان المحبين ، ويفصح عن أسرار نجواهم ومكنون قلوبهم... فتكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال، وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب، وكل ذلك في إطار من الشعرية الصادقة والتعبير البليغ الموحى، والخيال السامي الطلق ، ونجد في المقابل شوقي يتكلم عن لوعة الحب ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين، وحسن الجيد ، ودقة الخصر، والصبر على الوشاة ، وتقديع الحبيب، والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان (2) وجاء ذلك أيضاً بأسلوب عذب ، وألفاظ رقيقة ، تتم عن ذوق متحضر ، وملكة شعرية ، ومحبٌ متميم قد أضناه الحب ... فجاءت المعاني والأغراض متقاربة لدى الشعارين ، ولكن هذا لم يشكل قيداً على الذات ، وإنما كان سبيلاً إلى تفرجات غضة فتيه ، تفصح عن إمكانات المتبع وكيفية إجرائه النص السابق متأثراً بذاته وثقافته وعصره ، فإن انتسب إلى المشترك إلا أنه لا يلغي ذاته وتجربته بل يكون سبيلاً إلى فعل تدلال جديد (3) . وسأقوم بتوضيح هذه المعاني والصور وكيف كيفها الثاني وأجرائها في المسالك الخاصة ، وكيف أبدع في الأخيلة وجود اختياره لألفاظه .

(1) انظر: خفاجي، محمد عبد المنعم : دراسات في الأدب العربي المعاصر (القاهرة : دار المعارف) 67 .

(2) انظر: مبارك، زكي : الموازنة بين الشعراء (القاهرة ، مطبعة البابلي الحلبي، 1936) 114 .

(3) انظر : حيزم ، أحمد : حدث الإلتباع (مجلة موارد عدس ، سوسه ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 2003) 71 ، 72 .

أبواب الإتياع:

صورة الليل:

المطلع عند الحصري تمثل في الأبيات الثلاثة الأولى بوصف الليل، أما المطلع عند شوقي فقد تمثل في الستة الأبيات الأولى، وقد بدأ الحصري قطعته بوصف طول الليل على المحب المتيم، حتى أن الليل ليس له نهاية عنده، وليس له غد مشرق بضوء الصباح، فكأن هذا الليل لطوله موصول بنهاية عمر الحياة وبقيام الساعة، فلا يشرق له غد إلا بها، ويصور أرق المحب وسهره في هذا الليل، فهو دائم الشجن، يتذكر الفراق، فيزداد أسفه، وتهطل عبراته، ويدوم أرقه، من أجل ما هو فيه:

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

رقد السار فارقه أسف للبين يردده

فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده

فجد طباق جميل بين (رقد، أرق) فهي صورة السمار وقد ناموا، وصورة المتيم وقد سهر وأرق، ثم ذكر الحصري سبب الأرق وعلته وهو الأسف المر من أجل الفراق وسطوته، حتى إنه لطول سهره صار صديق للنجوم، يرهاها وترعاه، وهي تبكيه وترق له، وترثي لحاله.

ويقابل شوقي هذا المطلع باستعطاف مباشر لقلب محبوبته (مضناك جفاه مرقدته) فهو يخاطب محبوبته ويستند عطفها لأن حبها قد بلغ به حداً، حتى أن النوم جفاه، وبكاه وترحم عليه زائره، حتى صار حيران القلب معذب الفؤاد مقروح الجفن، وكاد يهلك من حرقة الحب، لولا بقية رمق فيه، ولقد استثار تأوّه الحمام الطائر، وأذاب تنهده الصخر، وصار ينجي النجم ويتعبه ويقدم الليل ويقعده، ويعلم بذلك كل الحمام التي أخذت تردد حزنه وتأوّه ولوعته، وتترنم به فوق الأغصان. هكذا كان إحساس شوقي بالليل الذي لا يغمض له عين فيه.

لقد برع شوقي في اتباعه لمطلع الحصري فقد صور مرارة الحب الذي يلقيه في ليله، حتى نشعر حين نقرأ أبيات شوقي بمدى عمق حبه وقدرته الفائقة على نقل إحساسه

لكل من حوله ،حتى إن كل من يسمع قصته يبكي لحاله حتى الطائر الذي لا يفهم ،
والصخر الذي لا يحس.

الحصري صوّر بكاء النجم شفقة لحاله ،أما شوقي فهو يناجي النجم ،فكلهما
صور الليل كما يتراء له ،وكما يعبر عن إحساسه فيه،فهذا يشاركه في حزنه بتعبيره
عن البكاء ،وذلك يواسيه في أحزانه .

الحب والوشاة:

في البيت الرابع يصف الحصري هيامه وكلفه بحببية الجميل ، وسبب بعد حبيبه عنه
وذلك خوف من الوشاة .ولكن شوقي يقر أن ما بينه وبين حبيبته قوي جداً ولا يقدر
أحد أن يفرقه حتى الوشاة .

بيني في احب وبينك ما لا يقدر واشٍ يفسه

طيف المحبوب:

ويقر بعد ذلك الحصري في بيتيه (الخامس والسادس):

نصبت عيناى له شركا في النوم فعز لا يتصيده

ولفى عجباً انى قنص للسر سباني اغيده

بأنه سيكتفي بزيارة المحبوب له في النوم ، وإن عينيه ستقيم شرك من أجل تصيد
طيف المحبوب في الأحلام ،ولكنه مع ذلك لم يحظ بشيء ولا برؤية طيف محبوبه
حتى في المنام ، ومع فشله في صيد طيف الحبيب ، وقع هو قنص وفريسة لهذا
الأغيد الذي سباه وهو يسير .

لقد تمثل الحصري هذا المعنى أجمل تمثل ، وبرع في الخيال ،وقد ألم شوقي بهذه
المعاني في بيتيه :

كم مد لطيفك من شرك وتأوب لا يتصيده

ففساك بغض مسغه ولعل خيالك مسعه

يستخدم شوقي بعض الألفاظ الواردة عند الحصري (شرك، لا يتصيد)، لكنه كان في اتباعه متأثراً بعصره والحضارة فلم يكن مجرد مقلد ، لدى فقد شكل الصورة بشكل جديد جعل السر في عدم زيارة طيف حبيبته له في الأحلام هو تأدب المحب مع محبوبه ، في حين جعل الحصري السر هو نفر الحبيب ودلاله.

صورة الحبيب:

في البيت السابع يصف الحصري حبيبه بأنه تمثال مجسم للفتنة والجمال ، وهو يقف أمام هذا التمثال محباً لا عابداً:

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبه

ولكن هذا عيب عليه، في تصويره محبوبه بالصنم لأن هذه الكلمة غير شعرية وهي مذمومة⁽¹⁾.

في حين نجد شوقي يقول:

مولاي وروحي في يده قد ضيعها سلت يده

ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبه

فقد صور محبوبه بأنه مولاه وصور قلبه بأنه ناقوس يدق ، وحنايا الأضلع معبد للمحبيب ، فهذا معنى جدد فيه شوقي فحنايا أضلعه خير حارس له فهو في داخل قلبه يتعبد ومالك قلبه ، وهذا إبداع من شوقي لأن محبوبه في قلبه محمي بسياج حصين.

سحر المحبوب:

- في أبيات الحصري (8-11) يصف فيها حبيبه بأوصاف شتى من الجمال وعضوبة الرقيق ، وفتور اللحظ وعربدته، وسحر الطرف وسقمه ، حتى كأنه سيف معرى من غمده ، يفتك بالمحبين ويريق دماءهم ، لذلك فهو مطالب بهذه الأرواح ، أرواح محبيه التي سفك دمهم ، ومن ثم فالويل لهذا المحبوب ممن يطلبون منه ثأرهم ثم يستدرك الحصري ذلك فيقول:

كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

فليس عليه جناح، فلا ذنب له لأنه لم يحمل سلاح بيده، فلم يسفك دما فعيناه هي التي سحرت وقتلت دون قصد⁽²⁾.

(1) انظر: مبارك، زكي: الموازنة بين الشعراء، 118.

(2) انظر: خفاجي، محمد عبد المنعم: دراسات في الأدب العربي المعاصر، 10.

حاول شوقي أن يتبع مع ابتكار معنى جديد مقابل لهذه الأبيات فقال:

ورضاب يوعد كوثره مقتول العشق ومشهده

فصور ريق المحبوب بالكوثر لكن هذا الكوثر العذب يقتل ، وإن عيب على شوقي
هذا المعنى إلا أنه أراد أن لا يكون عمله مجرد استنساخ⁽³⁾

صورة عينا الحبيب القاتلة:

ينتقل الحصري في الأبيات (12-14):

يامن جحدت عيناه دمي وعلى خديّ توره.

خداك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجده

إلى صورة عينا حبيبه السافك لدم هذا المحب المتيم ، واعترف خداه بدم المقتول من
أجل توردهما وحمرةهما وتملؤهما بدم المسفوك ومع ذلك فالمحب المقتول يبالغ في
التأدب مع الحبيب القاتل، فيعيده من جريرة القتل ومن تعمده:

إنني لأعينك من قتلي وأظنك لا تتعمده

حاول شوقي اقتفاء هذا المعنى :

جحدت عيناك زكيّ دمي أذكك، خذك بجده؟

قد عنز شهودي إذ رمتا فأشرت سخك أشهده

فأجد شوقي هنا لم يجدد في المعنى ، بل إنه كرر بعض الألفاظ
(جحدت، عيناك، دمي، خداك ، تجده) لكنه فصل القول، وإن كانت نفس الصورة.

فائدة النوم:

- أبيات الحصري (15-18) يطلب فيها من حبيبه أن يهب له النوم ، ليرى خياله في
الأحلام فقد يكون في ذلك دواء لضعفه ، وشفاء لسقمه ، الذي بلغ الغاية ، حتى أصبح
شبحاً مما أصابه في الحب ، وزائروه في غدهم باكيه ، وما أطف أسلوب الحصري
في هذه الأبيات ، وما أبلغ ه حين يقول (بالله هب المشتاق كرى) وقوله
(ماضرك) وقوله (يدنيك وتبعده) وقوله (هل من نظر يتزوده) وكلها صور جميله
وأخيلة عذبة ممتعة.⁽¹⁾

⁽³⁾ انظر: مبارك، زكي: الموازنة بين الشعراء، 117.

⁽¹⁾ خفاجي، محمد: دراسات في الأدب العربي، 61.

وفي قطعت شوقي مما تناظر هذه الأبيات:

ففساك بغض مسعف ولعل خيالک مسعه
أودي حرقاً الإرمقاً يبقية عليك وتنقه

فإن سبق الحصري إلى هذه المعاني إلا إن شوقي بما يمتلكه من شاعر يه ، فقد شكل هذا المعنى أيضاً في غاية الروعة لأنه وجد في النوم إسعاف لحاله الذي بلغ غايته ، ثم يقول (لعل خيالک) بعد ذلك (يسعه) ، وهكذا نجد أن شوقي شكل المعنى بشكل جديد فلم يجعل النوم دواء لشفاء ضنائه كما جعله الحصري ، بل إن الحب بلغ به مبلغاً احتاج فيه إلى من يسعفه بالنوم ليرى حبيبته ، فقد استطاع شوقي محاوره النص والنفاز به إلى معنى جديد يثبت به أنه في اتباعه لا يري أن يستنسخ إلا ظرفه الكائن فيه ، ومن ثم يمازج فيه بذاته وعصره .
والحصري ينشد:

لم يُبقِ هواك له رمقاً فليبك عليه عوده

يقابل شوقي هذا المعنى :

أودي حرقاً الإرمقاً يبقية عليك وتنقه

بلغ الحب بالحصري بأن الهوى لم يبق له حتى الرmq الأخير للحياة ، لكن شوقي أبقى الحب الرmq الأخير له لذا فهو يطلب من محبو بق أن تنقه ليتمكن من مواصلة الحياة . وهكذا نجد شوقي في اتباعه دائماً يُفاجئنا بمعنى جديد .

خاتمة الأبيات:

- يختم الحصري أبيات الغزل (19- 22) باستعطاف وشكوى بعد إن بلغ الرmq الأخير في الحياة ، في حين يختم شوقي أبياته :

ما خرت هواك ، ولا خمرت سلوى بالقلب تُبرده

وهكذا نجد شوقي في حبه صادق لذا لا يخون صاحبه ولا لحظة ، ولا يخطر له حتى في الخيال أحد غيرها يبرد غليله ، وهكذا شوقي حتى في ختام أبياته يأتي بمعنى مغاير لأبيات الحصري التي يتبعها .

- ولم يقتصر شوقي في معارضته وأتباعه على مقابلة كل بيت ، بل أتى بمعاني أخرى غير موجودة عند الحصري ، فنجده يفصل جمال محبوبته في غاية الروعة والجمال ،

بأسلوب عذب، وألفاظ رقيقة، وأخيلة بديعة، تنتم عن ذوق متحضر، ومملكة شاعرة،
فيقول (1):

أحسن حلفت بيوسفه والسورة إنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعةٍ يدها لو تبعث تشمهده
وهست بجيدك أشركه فأبى، واستكبر أضيده
وهزرت قوامك أعطفه فنبأ، وتمنّع أمله
سبب لرضاك أمهده ما بال انحصر يُعقده؟
قساً بثنايا لؤلؤها قسم الياقوت مُنضده
وقواما يروي الغصن له نسباً، والرمح يُفنده
ونخصر أوهن من جلدي وعوادي الهجر تُبدده

بلغ الجمال بمحبوبته إلى حد جمال النبي يوسف (عليه السلام)، وهو مضرب المثل في الجمال، مما يصور لنا بنا صاحبتة آية في الجمال والروعة، ويتمنى لو يبعث اللاتي قطعن أيديهن حين أبهرن جمال النبي يوسف (عليه السلام)، فلو يبعثن يعتريهن نفس الشعور حين رأينا النبي يوسف، ويستمر بعدها شوقي في ذكر صفات الجمال في محبوبته، فهي ذات قوام رائع وخصر رشيق، وثنايا مثل اللؤلؤ والياقوت إلى غير ذلك من الصفات التي تجعلنا نعذر شوقي على هيامه بصاحبته. وما هذا إلا دليل على إن شوقي لم يكن إتباعه مجرد استنساخ، بل ابتكر الكثير من المعاني وأضاف ما لم يكن في النص.

(1) ديوان شوقي (الشوقيات)، (بيروت، دار الكتب العلمية) 1/121.

النتائج :

- على الرغم من أن الحصري كان سابقاً إلى قول هذه القصيدة ، وبالرغم من أن شوقي كان تالياً ومتبعاً، إلا أنني توصلت في هذا البحث إلى:
- أن شوقي في هذه القصيدة لم يكن اتباعه اتباع مستنسخ، بل ظهرت في أبياته جوانب من التجديد كان فيها متأثراً بذاته وعصره وثقافته ، فلم يكن في اتباعه من قيد يكبله عن التجديد وقد تمثّل هذا واضحاً في :
- صورة الليل في مطلع أبيات شوقي التي كان فيها متأثراً بذاته، حيث نقل لنا إحساسه المرير بحبها أثناء الليل، حتى أن كل من يسمع قصيدته يبكي لحاله حتى الصخر، مما يدل على صدق انفعاله بتجربته ، ولم يكن فقط استنساخ ، بل جدد في مطلعها .
 - ومن ظهور أثر العصر قوله :
- كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيدُهُ
- فعلى الرغم من الشرك التي ينصبها طيف المحبوب ، إلا أنه لا يقع في الشرك لتأدب العلاقة القائمة ، احتراماً للأعراف ، في حين تمنع طيف محبوب الحصري راجع إلى غير ذلك فهو راجع إلى دلالة .
- يرى شوقي بأن الحب الذي بينه وبين محبوبته لا يقدر حتى الوشاة على زوبعته والتفريق بيننا ، في حين الحصري يخاف من الوشاة الذين يفرقون بين المحبين .
 - صورة الحبيب عند الحصري مثل التمثال المنسوب للجمال ، وهو يتعبد له ، في حين وجدنا شوقي صور قلبه معبد تتعبد فيه صاحبه وهي محمية بخير سياج وهي أضلعه .
 - انطلاق شوقي إلى معنى جديد ، حين طلب النوم الذي يكون فيه إسعاف لحالته التي شارفت الرمق الأخير ، فاحتاج إلى إسعاف مستعجل لانقاده حياته حين يرى محبوبته في النوم ، ولم يكن مجرد دواء كما مثله الحصري .
 - ختام شوقي بصدق حبه لمحبوبته وعدم خيانتها ولا التفكير في ذلك، في حين ختم الحصري أبياته الغزلية بلوعة عذابه في الحب .

- لم يقتصر على مقابلة كل بيت والتجديد في المعنى بل أتى بمعاني أخرى غير ما وردت في أبيات الحصري، مثل بيان سبب شدة حبه لمحبووبته الناتج من جمالها الأخذ مثل جمال النبي يوسف (عليه السلام).
هذه بعض الأمثلة الواردة في البحث والتي تدل على أن السنة المتبعة لا تشكل قيد يغل صاحبها، بل هي قوة محررة للنص الواحد من وضع الثبوت، وهي لا تلغي هوية النص، بل هي سبيل إلى تفرعات غضة فنية، وهي سبيل إلى إجراء المشترك في المسالك الخاصة.



- 1- حيزم، أحمد : حدث الإتياع (مجلة موارد عدد8 ، سوسه ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 2003) .
- 2- خفاجي، محمد عبد المنعم : دراسات في الأدب العربي المعاصر (القاهرة، دار المعارف) .
- 3- شوقي، ديوان شوقي (الشوقيات)،(بيروت ، دار الكتب العلمية).
- 4 - مبارك، زكي : الموازنة بين الشعراء (القاهرة ، مطبعة البابلي الحلبي، 1936) .
- 5- المرزوقي، محمد:ياليل الصب ومعارضاتها(تونس ، الدار العربية للكتب)
- 6- نوفل، محمد محمود: تاريخ المعارضات في الشعر العربي (عمّان، دار الفرقان، ط 1، 1983).